

زندالي  
ليلة 14 جانفي 2011  
أمين الغزّي

---

**ZINDALI**

**The night of 14 January 2011**

**Author: Amine al Ghozzi**

**Excerpt of 5 pages**

## انقلاب عسكري بلا عسكر

أمسك محمد الغنوشي مجموعة صغيرة من الأوراق بيدين مرتعشتين كمن اصطاد سمكة لأول مرة. تكلم متوجّها إلى الكاميرا بعينين واسعتين، بلغة مطبوخة بارتباك فوق خشب نديّ. وقف على يساره، كخزانة عريقة، رئيس مجلس النواب (رئيس الجمهورية المقبل) فؤاد المبرّع. انتصب على يمينه بانحناء طفيفة رئيس مجلس المستشارين (وزير الداخلية الأسبق) " عبد الله القلال". اصطفوا في مواجهة الكاميرا، ببدايتهم الأنيقة، بربطات أعناقهم، بنظاراتهم، بنظراتهم المتنقلة دون هوادة في فضاء المكتب الرئاسي لينقلوا ببرود نحاسي، شهادتهم الدستورية على انسحاب زين العابدين بن علي من الحكم. في الوقت الذي تداولت فيه معظم وكالات الأنباء العالمية خبر تخلي الجنرال، وبعد ما يزيد عن الساعتين من تداول خبر تخليه كانت المحطة التلفزية الوطنية تقدّم للحدث بنفس الرتبة التي كانت تحيي بها ذكرى إنقلابه: تارا تارا (موسيقى).

صور لمشوموم فلّ وآخر لياسمين وابتسامه محنّطة لرجل أسمر بشارب أسود عريض يلبس شاشية ولباسا تقليديا تارا تارا (موسيقى) ترى أيضا لقطات فضائية لنزل تونس، لمنزلها. قطع غزلان يجري بفرع في صحرائها منذ سنين. مقطوعة جاز لفوزي الشكلي. قصص تقليدي. صورة للميناء السياحي لسيدي بوسعيد.

تاتا تاتا نااتا (أغنية) أحنا الجود أحنا الكرم لصلاح مصباح، ثم خطاب الرئيس الجديد (الذي لم يبق في مكانه سوى سويغات).

وشعار الجمهورية برموزه الثلاث في خلفيّة الصورة:

- السفينة رمز الحرية، تسبح على حائط أملس، في قصر تحاصره رطوبة البحر ومعاداة الناس.

- الميزان رمز العدالة، يتدلى بكيسين فارغين على ظهر حمار لا مرئي.

- الأسد رمز النظام بساقيه الغليظتين، يحارب الفراغ بسيفه المسلول ويخفي ذيله خلف رأس الرئيس الجديد.

اقتربت الكاميرا بزوم نحو محمد الغنوشي حين أعلن أنّه يتولّى رئاسة الجمهورية. ابتعدت الكاميرا بزوم حين تعهد الرجل باحترام الدستور والقيام بالإصلاحات المرجوة، والله وليّ التوفيق.

علّق المذيع بنصف ابتسامه وباقتضاب شديد مشيرا بأنّ ذلك كان قرارا تاريخيا يستجيب لرغبة الشعب التونسي.

كان الأمر، في المحطة التلفزية الوطنية، شبيها بانقلاب عسكريّ دون عسكر، وكان غير العسكريين هؤلاء يؤكّدون بحركات أيديهم، عدم استعدادهم المهنيّ لتقبّل هذه المهمة:

- كفي السيّد المبرّع مشدودتان أمام كرشه كمن أقبل توا لصلاة.

- زراعي القلال وراء ظهره كمن يتشبّث بإهداء الحلوى لحبيبة لم تأت.

- يد الغنوشي اليمنى تنسلّ لشّد عصا المصدق كمن يطلب الاحتماء من دوحة مقبلة.

بدأت تونس بعد الساعة الثامنة مساء من ليلة 14 جانفي 2011، رسميا تحت طائلة انقلاب مرتجل.

وفي مشهد أجبرت فيه البلاد، كلّ البلاد، على الاختيار بين هيبة تقدّم بأيد مرتبكة وبين حمق يعبر عن نفسه بطيش وحرية اختارت الجماهير شقّ طريق الحرية بحمق وحماس.

## قبل أن يضحك ديلبوسكي

ارتفعت أصوات التكبير والتهليل في مقهى احميده بعد أن تأكّد الخير نهائيًا. رفعت الأيدي

خرّ سي يوسف ساجدا بين أسفل الكراسي وأعقاب السجائر كلاعب كرة سجّل هدفًا في الدقيقة الأخيرة.

قام فأسقط طاولة بظهره. صاح فيما تبقي من الجالسين:

- حااااي تحيا تونس، يحيا الشعب.

- سايس روحك سي يوسف.

تقدّم نحوهم وذهب لتقبيلهم واحدا واحدا ثمّ تدرج خارجا، مخترقا بصوته النّحيف فضاء الحيّ وسرواله متشبّث بالكاد في حوضه.

أتبعه البعض في مسيرته بشعارات وأناشيد متداخلة تداخل خيوط كرة من صوف. تفتنوا في حماسهم بأنّ الرّجل يسلك طريق منزله. نظر نحوهم مشيرا بذراعه اليمنى، معلنا أنّه سيواصل متابعة ما يحدث في البلاد عبر التلفزات الأجنبية، هناك أيضا النت.

- ابنتي تتابع ما يحدث منذ اليوم الأوّل. لقد انتصر الشباب يا جماعة، لقد انتصر الشباب.

توقّف أتباعه على بعد خطوات من الشارع الضيّق المؤدّي إلى منزله. تبادلوا نظرات حيرى في قلب طريق فارغ كناية أجوف، ثمّ انقسموا إلى مجموعتين تتكوّن كلّ واحدة من نفرين، كان أمامهم خيارين:

إمّا متابعة الثورة عبر التلفاز كما فعل سي يوسف، أو الالتحاق بصفوف الثوار في قلب المدينة، وقد اختلطوا بدورهم بألوان من الغاضبين، وأصناف من المهاجمين للمحلّات.

---

سارع الحاج احميده صاحب المقهى إلى إقفال باب المحلّ. ذكر بقيّة الجالسين بحظر التجول بالأمن وبالناهبين المنتشرين في أرجاء البلاد.

كان في العادة يجلس في زاوية من المقهى. يضع نارجيلته برأسها الفضيّ على يمينه، كأس النعناع المقطّر، إلى جانب آلة التحكم في التلفاز فوق الطابوري على يساره. يشير إلى عامله (يوّمن ابنه حصّة المساء، في حين يشتغل زوج ابنته في المقهى صباحا) بكلمات مقتضبة ثمّ يعود لصنع الطقطقة الرّتيبة بنارجيلته.

كان الحاج احميده شبيه ديلبوسكي، المدرب السابق لمنتخب اسبانيا لكرة القدم، قادرا قبل تلك اللّيلة، على متابعة كلّ شيء بحركة عينيه:

من دفع ثمن ما استهلك ومن لم يدفع، من انهزم في لعب الورق ومن انتصر، ماهي المقابلة الكروية القادرة على جمع أكثر عدد من الحرفاء، من خرج للصلاة، من عاد من الحانة سكرانا ومن بقي في المقهى متحدنا في السياسة، من طلب مشروبا قبل انطلاق المباراة المتلفزة ومن رفض.

لم يتعود على تشغيل محطات تلفزية إخبارية قبل ذلك اليوم. كان يكتفي بأخبار الساعة الثامنة في كل مساء، ثم يعود لمحطة غنائية أو رياضية، وفم النارجيلة لا يفارق شفثيه، وعينه ترافق ذهنه في عمليات حسابية عن المصاريف والمرابيح ومشاريب الحرفاء.

تزرح عن كرسيه في ذلك المساء. اقترب من جهاز التلفاز. غطى برأسه الضخم المحشو في بوني قطنية، ثلث الشاشة، وقت الخطاب.

لما علت الصيحات وخرج سي يوسف يتبعه بعض المنحازين لفرحته، لم يجد ديلبوسكي آلة التحكم في التلفاز من شدة الانفعال فانتقل لينقض بسبابته على أحد الأزرار المزروعة في خاصرة الجهاز ليغلق التلفاز نهائيا ويكتم الصوت المتسبب في تواصل ذلك الهيجان.

لم يتبق في المقهى سوى المجموعة التي تعرضت لاحقا لإطلاق النار بعد أن شرعت في حماية مفترقات الطرق المجاورة:

عم محمد. حمزة. عبد الواحد المكني، متعهد محل نادي الانترنت المجاور وصديقه فوزي.

تحرك الحاج قلغا بين جنبات المكان كسلحفاة مائية ضخمة، هدد بمهاتفة الأمنيين وبفضح أمر رواد المقهى الراضين العودة إلى ديارهم.

تكلم فوزي:

- لم يعد هناك أمن يا حاج. انتهى.

ردد عبد الواحد، مشرئبا بعنقه ناحية صاحب المقهى، و نظاراته تعكس ضوء مصابيح النيلون الأزرق المعلقة في السقف:

- يا حاج أعد تشغيل التلفزة يعيشك. البلاد شعلت يا حاج.

طرق عم محمد الطاولة بقبضة متيبسة كقطعة حجريّة سقطت من سور المدينة العتيقة. لم ينقطع عن الضحك والسعال وتجاويد وجهه ترسم كثباننا وخطوطا متحركة بين فمه العريض وعينه الخضراوين الغائرتين. نادى على العامل دون اكتراث بتهديدات الفاتق الناطق في المحل:

- الشاي يا هشام، نريد أن نحتفل بهذه المناسبة.

طلب كل الجالسين مشروبا ثانيا. أجبر صاحب المحل على الصمت.

لم يعد إلى نارجيلته، تحرّك ببطء إلى الأضواء ليقال من نورها. ثم أعاد النور إلى التلفاز. غير القناة، وضع الجزيرة القطرية للأخبار، وأخفى نصف الشاشة برأسه الضخم.

كان مندهشا بغم مغلق أمام كل ما كان يقال عن هروب بن علي، وعن قبة النار التي اشتعلت في البلاد. استطاع كتم غبطة داخلية لا يعرف مصدرها حتى أنه لم يتفطن إلى أصوات الجالسين خلفه، مطالبين إياه بالابتعاد قليلا. تقدّموا نحوه، تحلقوا حول التلفزة، كلّ يلدو بلدوه. لم يتفطن إلا لأصوت عمّ محمد وسبابته وهي تتوجّه للشاشة لتنقر صورة بن علي بعصبية.

دفع احميده عمّ محمد ليبعده عن التلفاز ولما كاد العجوز يسقط، شدّه اليه وهزّه كقفة من القطن وهو يضحك.

الجميع رأى الحاج احميده ديلبوسكي الضخم، يضحك. كانت ضحكته مجلجلة بغلظة.

### كرات من لهب

انتظر نوفل خطابا مواليا لقائد القوّات المسلّحة. أقفل الباب وراء آخر الحرفاء الذين اختفوا إثر سماع الخبر، وإعلان حالة الطوارئ القصوى.

اشترى علتي سجائر كريستال دفعة واحدة من رحمان الحمّاص المجاور. أفرغ ما تبقى من القهوة في بطنه. طلب من علي الدوّ أن يطفئ النور قبل أن ينتقل للجلوس إلى جانبه، ففعل. انحنى على لوحة المفاتيح يطرقها بأصابع متشنّجة، مواصلا بحثه بين الصفحات الرقمية عن ضالّته، عن الخطاب العسكري. البيان رقم واحد.

اعتقد نوفل بصدق بأن جنرالا حقيقيا، سيظهر، ببزّة خضراء وقبعة مزروعة علامات لماعة. جنرال بقلب حاف وصوت دافئ، سيتكلّم من مكان ما ليعلن مساندته اللا مشروطة للثورة ويلقي بأعدائها تحت عجلة تاريخ قرّر التقدّم بشخرة واحدة.

كانت الأخبار- الشائعات - ردود الفعل - تسقط من كلّ صوب، ككرات من لهب، فتحشر بين أخريات، أخيات، توائم متشابهات في قصر العبارة والإثارة. وكان علي إلى جانب نوفل يراقب تسلسلها الواحدة وراء الأخرى على شاشة الكمبيوتر. كانا كرأسين مزروعين في عنق واحد، وراء ستارة الدخان المنبثقة من السجائر:

- تتّجه طائرة بن علي الآن نحو مالطا.

- اتّجهت طائرة زين العابدين بن علي نحو فرنسا.

- إلقاء القبض على كلّ العائلة الطرابلسيّة في مطار تونس قرطاج؟

- سليم شيبوب يتسلّل هاربا إلى التراب الليبي.

- فيديو بعنوان: هذا ما جعل بن علي يهرب من تونس. الآلاف أمام مقرّ وزارة الداخلية يهتفون بصوت واحد ديغالااج. أنشر. أنشر.

- عناصر من الطرابلسيّة ومن عائلة بن علي تسعى الى الهرب من تونس بكلّ طرق والجيش يحاول إغلاق السبّل أمامهم.

- فيديو: الشرطة التونسية تنهال بالضرب على أحد المتظاهرين في ملحمة قدّام مقرّ الداخلية.

- فيديو: نابل هذا المساء اقتحام المغازات الكبرى من طرف أعداد كبيرة من الناس، والأمن يطلق النار بعشوائية.

- قناة الجزيرة: سماع إطلاق نار في محيط القصر الرئاسي وأنباء عن مواجهات بين الأمن والجيش.

- مجموعات ملثمة فوق سطوح المباني، ومجموعات تواصل هجومها على المغازات والمحلات.

- رغم إعلان حظر التجول، منازل تتعرض للتكسير والنهب.  
- أحداث نهب وسطو في قلب مدينة سوسة، المغازات الكبرى، المحلات، مقرات أمنية.  
- أصوات طلق النار تتواصل، بعد هروب بن علي. ماذا هناك؟  
- في أحياء العاصمة بدأت تتشكل مجموعات محلية لحماية المنشآت والمحلات.  
- استمعو إلى هذه الرسالة التي أرسلت لصديق: لا تنفوا في أحد ماعدا الجيش. إذا استمعت لأصوات من نوع الله أكبر أو شيء من هذا القبيل لا تخرجوا في الطريق. إذا رأيتم سيارة سيارة كليو سيمبول ابتعدوا عن الطريق، إنهم جيوشنا ولن تستطيعوا صدّهم بأسلحتكم البدائية.

لم يتوقّف نوفل عن استعراض صفوف الجمل الإخبارية. كان في ملامحه المخفية تحت قبعة رأس، وذقن دون حلاقة، يهزّ نفساً من سيجارة إلى فمه، يرسم بحركات يديه المتشنجة لوحات تجريدية من دخان، مؤكداً بأنّ الجيش انقلب على بن علي منذ يوم اثناس.  
- تتذكر؟ الجيش أكيد، أجبره على إلقاء خطاب يوم ثلاثاش، ودفعه إلى الرحيل يوم اربعطاش. الجيش تسلّم الحكم فعلاً، لكنّ هناك من يرفض ذلك، وعائلة بن علي ألقي عليها القبض، أكيد سيردون الفعل. وسيأتي البيان رقم واحد لينهي كلّ شيء. أكيد.

### مارد يغادر كهفه

كانا في محلّ الأترانت لما راج خبر هروب الرئيس بن علي.  
قفز نوفل من على كرسيه مكبراً:  
- الله أكبر، يا ربّي يا ربّي لك الحمد. يا ربّي تحيي تونس.  
انحنى علي برأسه من وراء شاشة الكمبيوتر و نظر إلى نوفل متسائلاً:  
- ماذا يحدث؟  
- بن علي طار. الخبر على قناة الجزيرة.  
- متأكد؟  
- اي نعم. الجزيرة يا علي الجزيرة.  
فكراً في الخروج مباشرة إلى باب بحر، قلب المدينة. بحثنا في الأخبار، عبر النّت، عن دعوة للتجمّع والاحتفال، عن الخروج بأعلام حمراء وبيضاء تنشد الحرية والسلام.  
دون جدوى. كانا مستعدّين، مثل الكثيرين، للسهر خارج المنازل والحوانيت. كانا ينتظران احتفالاً ينسيهما كلّ ما سبق:  
الليالي السوداء. فيديوهات وصور الشهداء بأفواههم المفتوحة، رؤوسهم المفلوكة، أجسادهم المسجّاة دون اعتناء فوق الأسرة الحديدية للمستشفيات.  
لم يكن لنوفل أن يتشبّث بشدّة في فكرة-حكم-دور الجيش، ولم يكن لتلك الليلة أن تعلن إفتتاح مواسم الهذيان الجماعي وتنتهي برصاصة أودت بساقه.  
لم يتسنّ لأحد الاحتفال بحدث تخلي بن علي عن الحكم. لم ترفع أعلام في تلك الليلة، ولم تزيّن الشماريخ الملونة سماء وطن أحسن أهله في لحظة مباغته بالحرية والانعتاق.  
مرت كلّ البلاد بسرعة من حالة طوارئ حاول أن يحميها بوليس زين العابدين إلى حالة طوارئ ثانية أراد حمايتها الجيش، ونفّذها بالتعاون مع الشعب التونسي، الذي اشتغل شرطة بدل شرطة كانت حاضرة كوجه الله في كلّ مكان ثمّ اختفت فجأة كحبة ملح.  
وقفت المجموعات الشعبية للرقص على أنقاض نظام يلفظ أنفاسه الأخيرة، لحماية أحياء هاجمها الخوف من المجهول، بكلّ الوسائل:  
بالحجارة، الهراوات، الخناجر، الحناجر، الأغاني، الهواتف، العدد، الوطنية.  
لا فكرة استطاعت استيعاب أو تنظيم ما وقع.  
غادر مارد بعينه المسلوبة، كهفه متبعا دون هدى، هديرا ضخماً، دون أن يدرك بأنّ مصدر ذلك الهدير لم يكن سوى صدره.